

الاستلزام الحواري في الخطاب القرآني
- مقارنة تداولية في آيات من سورة البقرة -
**Conversational Implicature in the Quranic Speech
- Deliberative Approach in the Verses of Surat Al
Baqarah -**

أ. عيسى تومي

قسم الآداب واللغة العربية

جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر

aissamofad@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/02/10	تاريخ القبول: 2018/07/24	تاريخ الإرسال: 2018/07/01
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

يتناول هذا المقال ظاهرة الاستلزام الحواري في الخطاب القرآني من خلال دراسة وتحليل المعاني المستلزمة التي خرجت إليها بعض الأساليب الخبرية، والأساليب الإنشائية (الطلبية) في خطاب سورة البقرة والأغراض التداولية التي تؤدّيها؛ مع الأخذ بعين الاعتبار المقامات التخاطبية والسياقات التي وردت فيها؛ بالاعتماد على آراء بعض العلماء والمفسرين.

الكلمات المفتاحية: استلزام حواري؛ خطاب قرآني؛ أغراض تداولية.

Abstract:

This paper deals with the study of the meanings required by some of the new methods and the structural methods in the speech of Surah Al-Baqarah and the deliberative purposes that they perform, taking into consideration the denominators mood management and contexts in which, relying on the opinions of some scholars and interpreters.

Keywords: conversational implicature; Quranic speech; deliberative purposes.



مفهوم الاستلزام الحوارية:

الاستلزام الحوارية هو أحد أبرز المفاهيم التداولية ، والتي تعود أولى بداياته إلى أعمال الفيلسوف اللغوي "بول غرايس" H.P.Grice (1913م-1988م) الذي يعد أول المنظرين لهذا المفهوم في الدرس التداولي الغربي الحديث من خلال مؤلفه "المنطق والمحادثة"، فقد لاحظ بأنّ المتخاطبين عندما يتحاورون يتبعون عددا معينا من القواعد الضمنية اللازمة في أثناء تواصلهم،¹ وأنه في حالة ما إذا وقع خلل في تلك القواعد فلا يتم ذلك التواصل وإثبات نظريته هاته وضع غرايس مبدأ عاما سماه "مبدأ التعاون"؛ يقضي هذا المبدأ بأن يتعاون المتخاطبون في تحقيق الهدف من حوارهم، وصيغته: "ليكن اندفاعك في الكلام على الوجه الذي يقتضيه الاتجاه المرسوم للحوار الذي اشتركت فيه".² ويتفرّع عن هذا المبدأ أربع قواعد هي:

- 1- قاعدة الكم (maxim of quantity) : وتتفرّع هذه القاعدة بدورها إلى مقولتين هما:
- لنكن إفادتك للمخاطب على قدر حاجته. - لا تجعل إفادتك تتجاوز الحد المطلوب.
- 2- قاعدة الكيف (maxim of quality): والقصد منها منع ادّعاء الكذب، وتتفرّع إلى:
- لا تقل ما تعلم خطأه. - لا تقل ما ليس لك عليه دليل.
- 3- قاعدة العلاقة أو الملاءمة (maxim of relevance): وخلصتها(ليناسب مقالك مقامك) أي أن يجعل المتكلم كلامه ذا علاقة بالموضوع.
- 4- قاعدة الجهة أو الطريقة (maxim of manner): وهي ترتبط بما يراد قوله، وتتفرّع بدورها إلى: - لتحترز من الالتباس. - لتحترز من الإجمال. - لتتكلم بإيجاز - لترتب كلامك. 3 ويرى "غرايس" أنّ هذه القواعد هي بمثابة الضوابط لكل عملية تخاطبية، وعلى الطرفين المتخاطبين الالتزام بها في أثناء الحوار، وفي حالة ما إذا أحلّ أحد الطرفين بقاعدة من هذه القواعد "وجب على الآخر أن يصرف كلام محاوره عن ظاهره إلى معنى خفي يقتضيه المقام، وهذا المعنى المصروف إليه يحصل بطريق الاستدلال من المعنى الظاهر ومن القرائن، وذلك بالذات ما عُبر عنه بالاستلزام التخاطبي".⁴ أو الحوارية.

وعلى الرغم من الأثر الإيجابي الذي أحدثه هذا المبدأ في تطوير التداوليات اللغوية وتنويع الدراسات المتعلقة بموضوع التواصل الإنساني إلا أنّه كان محلّ جدل وانتقاد من طرف العديد من

الدارسين - ومنهم الأستاذ "طه عبد الرحمن" - الذي لاحظ على "غرايس" عنايته بالجانب التبليغي في الخطاب وإغفاله لجوانب أخرى مهمة كالجانب التهذيبي على الرغم من أنه - أي غرايس - كان قد أشار إلى هذا الجانب عندما ذكر أنّ هناك أنواعا مختلفة لقواعد أخرى، جمالية واجتماعية وأخلاقية من قبيل (لتكن مؤدبا) التي يتبعها - عادة - المتخاطبون في أحاديثهم والتي قد تولّد معاني غير متعارف عليها. 5 وقد ظهرت مبادئ أخرى لدارسين آخرين سدّت ذلك الخلل والنقص الذي عرفه مبدأ التعاون لـ غرايس، ومن هذه المبادئ:

1- مبدأ التأدب (التهذيب) لـ "روبين لايفكوف" (Robin-Lakoff): وقد ورد هذا المبدأ التداولي في مقالها الشهير "منطق التأدب"، وفحواه: (لتكن مؤدبا) ويقضي بأن يلتزم المتكلم والمخاطب في تعاونهما على تحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام؛ " إذ يُستحسن لطرفي الحوار مراعاة هذا المبدأ مثل مراعاتهما لقواعد مبدأ التعاون، ممّا يفي بتكامل هذين المبدأين؛ من أجل تحقيق أهداف الخطاب والتعبير عن المقاصد". 6 ويتفرّع عن هذا المبدأ ثلاث قواعد هي:

أ- قاعدة التعقّف: وهي لا تفرض نفسك على المخاطب، أي لتبقى متحفّظا ولا تتطّقل على شؤون الآخرين.

ب- قاعدة التشكيك (التخيير): وهي لتجعل المخاطب يتخذ قراراته بنفسه، ودع خياراته مفتوحة. وتقضي هذه القاعدة بأن يترك المتكلم للمخاطب مبادرة اتّخاذ قراراته بنفسه .

ج- قاعدة التودّد: وتوجب هذه القاعدة على المتكلم أن يُظهر الودّ للمخاطب؛ فيعامله معاملة النظر للنظير.

و تدعى "روبين لايفكوف" أنّ قواعد التأدب كلية في طبيعتها وعددها بحيث تأخذ بما كلّ المجتمعات البشرية. كما تأخذ بما كلّ الجماعات اللغوية داخل المجتمع الواحد. وممّا سبق يتّضح بأنّ (مبدأ التأدب) الذي قالت به "لايفكوف" يفضل مبدأ التعاون الذي اقترحه "غرايس"، على اعتبار أنّ هذا المبدأ - أي مبدأ التأدب - يجمع بين الجانبين التبليغي والتهذيبي من الخطاب، بالإضافة إلى أنّه يتفرّع على قواعد تنظّم هذا الجانب الذي أهمله "غرايس" في مبدأ التعاون . 7

2- مبدأ التواجه لـ "براون" (Brown.P) و"ليفينصن" (Levenson.S): هو مبدأ تداولي ورد عند هذين الباحثين في عملهما المشترك "الكليات في الاستعمال اللغوي: ظاهرة التأدب"، وفحواه: (لتصن وجه غيرك)، ويقوم هذا المبدأ على مفهومين أساسيين؛ هما:
- مفهوم الوجه: وهو عبارة عن ذات الشخص التي تتحدد بما قيمته الاجتماعية.
- مفهوم التهديد: يرى الباحثان بشأن هذا المفهوم أنّ من الأقوال ما ينزل منزلة الأعمال فيهدد الوجه تمديدا ذاتيا، وهي الأقوال التي تُعوق بطبيعتها إرادات المتكلم أو المستمع في دفع الاعتراض وجلب الاعتراف. 8

3- مبدأ التأدب الأقصى عند "جوفري ليتش" (Leech.G): وقد ورد هذا المبدأ في كتابه: "مبادئ التداوليات" والذي يعدّه مكملا لمبدأ التعاون وقد صاغه في صورتين:

- صورة سلبية: قلل من الكلام غير المؤدب. - صورة إيجابية: أكثر من الكلام المؤدب.
ويرى "ليتش" بأنّ هاتين الصورتين تجنّبان المتكلم من الوقوع في النزاع أو ما يمنع التعاون، وتمتاز محاولة ليتش هذه في كونه ينطلق من مبدأ التعاون ناقدا ومستدركا، فيُقرّ بأهميته، بوصف التعاون هو الأساس المفترض لتوجيه طريقي الخطاب، لأنّه الرابطة بين قصد المرسل في خطابه ومعنى الملفوظ الدلالي. أما قصور هذا المبدأ فيكمن في انحسار دوره على تنظيم التواصل، والوقوف عند المستوى التبليغي للخطاب مغفلا لمبادئ الخطاب الاجتماعية والتفسيّة الأخرى.

4- مبدأ التصديق لـ "طه عبد الرحمن": والذي قام بمراجعة لهذه المبادئ والقواعد التخاطبية وكشف عن بعض الثغرات والتناقض التي تشكو منها؛ واقترح مبدأ يسدّ هذا النقص سمّاها مبدأ "التصديق"، وهو مبدأ كان قد استمدّه من التراث العربي الإسلامي، وفحواه: "لا تقل لغيرك قولا لا يصدّقه فعلك". 9

وخلاصة هذا المبدأ أنّه يقوم على عنصرين اثنين: يتمثل الأول منهما في نقل القول الذي يتعلّق بالجانب التبليغي في الخطاب، ويتمثل الثاني في تطبيق القول الذي يتعلّق بالجانب التهذيبي فيه. ويتفرّع على مبدأ التصديق في جانبه التبليغي قواعد مضبوطة نجدها مجتمعة ومفصّلة عند "أبي

الحسن الماوردي" (ت 450هـ) في كتابه: "أدب الدّنيا والدّين"، وهي:
- أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إمّا في اجتلاب نفع، أو دفع ضرر.

- أن يأتي به في موضعه ويتوحي به إصابة فرصته.
- أن يقتصر منه على قدر حاجته.
- أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به. 10 كما تتفرع على مبدأ التصديق في جانبه التهذيبي مجموعة قواعد؛ قام الأستاذ طه عبد الرحمن باستقراءها من التراث العربي الإسلامي، وقد أوجملها في ثلاث؛ وهي : - قاعدة القصد: لتتفقد قصدك في كل قول تلقي به إلى الغير.
- قاعدة الصدق: لتكن صادقا فيما تنقله إلى غيرك.
- قاعدة الإخلاص: لتكن في توددك للغير متجردا عن أغراضك. 11

وبعد فإنّ التأمل في تراثنا اللغوي يجد أنّ علماءنا العرب القدماء وبخاصة علماء البلاغة وعلماء الأصول وكذا المفسرين قد عنوا بدراسة ظاهرة الاستلزام الحواري؛ التي ظهرت في ثنايا دراساتهم بمصطلحات من قبيل: الأغراض التي تؤديها الأساليب، ودلالة المفهوم، والمعنى المقامي، والمعنى الفرعي... وغيرها من المصطلحات والمفاهيم التي تدل على مدى وعيهم بهذه الظاهرة اللغوية. 12 وستعرض الدراسة فيما يأتي إلى تحليل نماذج من الآيات القرآنية التي خرجت فيها الأساليب الخبرية وكذا الأساليب الإنشائية الطلبية إلى معان مستلزمة في خطاب سورة البقرة والأغراض التداولية التي تؤديها مع الأخذ بعين الاعتبار المقامات التخاطبية والسياقات التي وردت فيها؛ بالاعتماد على آراء بعض العلماء والمفسرين.

أولا: المعاني المستلزمة عن الأساليب الخبرية في خطاب السورة:

من المعلوم أنّ الغاية التي يلقي من أجلها الخبر هي إفادة المخاطب الحكم الذي يتضمنه الكلام، ويسمى ذلك (فائدة الخبر)، أو إفادة السامع أنّ المتكلم عالمٌ بذلك الخبر ويسمى ذلك (لازم الفائدة) غير أنّه في كثير من الأحيان قد يُلقى الخبر ليُحقق أغراضا بلاغية وتداولية كثيرة، ومعاني مختلفة تُفهم من السياق وقرائن الأحوال كالثناء والمدح، والتعظيم، والدعاء، والتوبيخ، والتحقير والطلب (الأمر والنهي) وغيرها.

1- المدح والثناء: وهما من المعاني التي خرج إليها الأسلوب الخبري في خطاب السورة كما في قوله تعالى: ﴿آلَمْ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة، 2، 1) فقله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ يتضمن ثناء منه - سبحانه - على كتابه المنزل، أي ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب

الكامل، إذ الإشارة للقريب بالبعيد (ذلك) عند البلاغيين تدلّ على بُعد المنزلة، وإذا ضُمَّت إليها دلالة (ال) في (الكتاب) صار المعنى: هذا الكتاب الرفيع القدر الكامل في كلِّ ما حواه لاشكَّ فيه هدى للمتّقين. 13 وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾ (البقرة، 143). فقد تضمّن ملفوظ الآية إلى جانب فعل الإخبار، معنى مستلزما يتمثّل في فعل المدح والثناء على المؤمنین، فقد جعل الله تعالى المسلمین أمة وسطا بين الأمم لاسيما اليهود والنصارى، والأمة الوسط بعيدة عن التّفصير وعن الغلوّ في الاعتقاد، والوسط يطلق على الخيار والعدل. قال الزمخشري: "وقيل للخيار وسطا لأنّ الأطراف يتسارع إليها الخلل والإعوار، والأوساط محمية محوطة...". 14 وقال ابن عاشور: "والحقّ عندي أنّ الآية صريحة في أنّ الوصف المذكور فيها (وسطا) مدح للأمة كلّها...". 15 وهو ما يؤكّد خروج الأسلوب الخبري في هذه الآية عن معناه الأصلي؛ الوصف والإخبار إلى معنى مستلزم مقاميا هو المدح والثناء لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم بأن جعلها الله سبحانه أمة وسطا بين الناس.

2- الدّعاء: من الآيات التي خرج فيها الخبر إلى معنى الدّعاء قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾. (البقرة، 10) فبالإضافة إلى القوة الإنجازية الصريحة المتمثلة في إثبات صفة المرض للمنافقين، تضمّن ملفوظ الآية قوة إنجازية مستلزمة هي (الدّعاء). قال بعض المفسرين بشأن هذه الآية؛ هي دعاء عليهم. 16 أي معناه: فليزدهم الله مرضا. 17

وإذا كان سياق الدّعاء يقتضي من المتكلم أن يستخدم صيغة الأمر (ليزدهم...)، أو (اللهم زدهم...)، فإنّ هذه الصيغة محمولة على الطلب المرجوّ وقوعه، ومن ثمّ فإنّ أثرها لا يبلغ في نفس السامع ما يبلغه أثر الجملة الماضية الدّالة على حصول الفعل والتحقّق من حصوله. أي كأنّ هذا الأمر المرجوّ وقوعه صار واقعا بالفعل فجاء بصيغة الخبر وهو كثير في كلام العرب كما في قولهم للعاطس: يرحمك الله، وللمريض: شفاك الله، وللمخطئ: سأمحك الله، ونحو ذلك... وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. (البقرة، 285) فقد تضمّن معنى الدّعاء بالمصدر المنصوب (غفرانك)، فهو بدل من فعله، والتقدير: اغفر غفرانك. 18

ولما كان الدعاء من الإنشاء الطلبي فإنّ اللغة لم تُخصّه بنمطٍ معيّن وصيغة خاصة يتمّ بها، وإتّما جعلته شركة بين طائفة من الأنماط التركيبية، ووضعت بيد المتكلم أن يختار للتعبير عنه أي أسلوب يشاء. 19

3- الالتزام: والمعروف أنّ الالتزام إنشاء لا خبر، كما في إبرام العقود؛ كعقد البيع، وعقد الزواج والهبّة وغير ذلك، وهو يتمّ بمجرد التلقّظ بصيغة الفعل، نحو: بعثك، وزوجتُك، ووهبتُك ونحو ذلك. وأمّا من وجهة نظر التداولية؛ فإنّ الأفعال الالتزامية هي أفعال كلامية إنجازية تهدف إلى إلزام المتكلم بالقيام بعمل ما، ويكون اتجاه المطابقة فيها من العالم إلى القول، وشرط الإخلاص فيها هو القصد، والمحتوى القضوي فيها هو دائما فعل المتكلم شيئا في المستقبل. 20

ومن الآيات التي خرج فيها الخبر إلى معنى الالتزام، قوله تعالى: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَادْبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾. (البقرة، 71) أي الآن نلتزم بما طلبت منا ونُجيبك إلى طلبك. فقول المخاطبين من قوم موسى -عليه السلام- ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ ليس مجرد إخبار له بذلك وإتّما هو التزام ووعدهم بتنفيذ الأمر الذي كُلفوا بتنفيذه، وهو الأمر بذبح البقرة، وذلك كله يُفهم من السياق الذي وردت فيه هذه الآية الكريمة. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. (البقرة، 285). أي نلتزم بما طلب منا. ونُنفّذه. 21

فالقوة الإنجازية الصريحة في ملفوظ الآيتين السابقتين تتمثل في فعل الإخبار (مقول القول)، أمّا القوة الإنجازية المستلزمة في كلّ منهما فهي (إنشاء الالتزام)، فيتحوّل الكلام الخبري حينئذٍ وبقرينة المقام والسياق من مجرد وصف للعالم وتقرير الحقائق إلى إنشاء يهدف إلى تغيير العالم والتأثير فيه.

4- الطلب: بالإضافة إلى ما ذكر؛ فإنّ ثمة حالات يخرج فيها الخبر للدلالة على الطلب (الأمر والنهي)، نحو قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾. (البقرة، 228) فجُملة ﴿الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبرية يُراد بها الأمر، "لأنّ السياق يدلّ على أنّ الله أمر بذلك؛ لا أنّه خبر". 22 - كما يرى "الإمام الزركشي" فقد تضمن ملفوظ الآية قوة إنجازية غير مباشرة هي الأمر الموجه إلى المطلقات بالتربص ثلاثة قروء زيادة على القوة الإنجازية المباشرة والصريحة؛ المتمثلة في فعل الإخبار، وهي الفكرة التي تحدّث عنها "بول غرايس" في الدرس التداولي الغربي

والتي مفادها: أنّ جمل اللغات الطبيعية يمكنها أن تدلّ على معنى غير المعنى الذي نستخلصه من معناها الحرفي، وعليه نكون هنا بصدد فعلين كلاميين اثنين:

- فعل كلامي مباشر: هو دلالة هذه الجملة على الخبر المنصوص عليه حرفيا في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾

- وفعل كلامي غير مباشر: يتضمن قوة إنجازية غير مباشرة (مستلزمة) مقاميا هي الأمر بالتربص على نحو ما بيّنه الإمام الزركشي في نضه السابق. ومن الأمثلة التي خرج فيها الخبر إلى معنى النهي؛ قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ...﴾. (البقرة، 197) وتقدير الكلام: فلا يرفث، ولا يفسق... فقد نفى الرفث والفسوق والجidal نفي الجنس مبالغة في النهي عنها وإبعادها عن الحاج، حتّى جعلت كأنها قد نُهي الحاج عنها فانتفت أجناسها، ونظير هذا كثيرٌ في القرآن كقوله تعالى: (والمطلقات يتربصن). 23 وقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. (البقرة، 256) يقول الشيخ ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: "ونفي الإكراه خبرٌ في معنى النهي، والمراد نفي أسباب الإكراه في حكم الإسلام، أي لا تُكرهوا أحدا على اتباع الإسلام قسرا، وقد جيء بنفي الجنس لقصد العموم نصّا" 24.

فملفوظ الآية الكريمة يتضمن إلى جانب القوة الإنجازية الصريحة (الإخبار)؛ قوة إنجازية مستلزمة تتمثل في النهي المؤكّد عن الإكراه في الدين بجميع أشكاله وصوره، وذلك لأنّ العقائد لا يمكن أن تُغرس في نفوس البشر جبرا وإكراها وإنما تغرس فيها رغبة واقتناعا.

ثانيا: المعاني المستلزمة عن الأساليب الإنشائية (الطلبية):

تخرج الأساليب الإنشائية الطلبية (الاستفهام و الأمر والنهي والتمني والتداء) عن دلالاتها الحقيقية عندما يمتنع إجراؤها على الأصل إلى معان وأغراض مختلفة؛ كالتعجب، والتهديد، والتوبيخ، والتقريب، والإنكار وغيرها من المعاني التي يحددها السياق والمقام الذي يتم فيه الخطاب، وصور هذا الخروج للأساليب الإنشائية من معانيها الأصلية إلى معان فرعية مستلزمة، هي كثيرة ومتنوعة في خطاب سورة البقرة.

1- المعاني المستلزمة عن أسلوب الاستفهام:

الاستفهام هو أحد أكثر الأساليب الإنشائية استعمالا وأهمية، ويُراد به طلب الفهم أو معرفة ما هو خارج الذهن. وهو قد يرد على سبيل الحقيقة بحيث إنّ المستفهم يرجو من سؤاله حصول ما لم يكن يعلم قبل السؤال، وقد يرد على سبيل المجاز فيخرج إلى أغراض ومعان أخرى يحددها الموقف والسياق وقرائن الأحوال كالتقرير والنفى والتوبيخ وغيرها.

والسؤال من الله تعالى في القرآن الكريم هو من هذا القبيل وهو كثير في خطاب السورة، لأنه - سبحانه - مستغن عن سؤال خلقه فهو يعلم الأشياء قبل كونها، وإنما يستفهمهم ليقرّرهم ويذكرهم أنهم قد علموا حقيقة ما سُئِلوا عنه، وهو من الأساليب البديعة التي تميز بها الخطاب القرآني. وقد خرج أسلوب الاستفهام في خطاب السورة عن معناه الأصلي - وذلك ضمن مقدمات مختلفة - إلى معان فرعية (مستلزمة) كثيرة، منها: 25

- التعجب: نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. (البقرة:30). يرى الزمخشري أنّ سؤال الملائكة في هذه الآية وارد في معنى التعجب من أن يستخلف الخالق - سبحانه - مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير. 26

ويرى الشيخ ابن عاشور بأنّ سؤال الملائكة في هاته الآية محمول على حقيقته متضمن معنى التعجب... لأنّ من كان شأنه الفساد والسفك لا يصلح للتعمير لأنه إذا عمّر نقض ما عمّره. 27 وعليه تكون القوة الإنجازية الصريحة للمفوض الآية هي الاستفهام، أما القوة الإنجازية المستلزمة مقاميا فهي التعجب.

- الإنكار: من الآيات التي خرج فيها الاستفهام إلى معنى الإنكار قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. (البقرة:28). ف (كيف) هنا لإنكار الحال التي يقع عليها كفرهم، فكأنّه قال كيف تكفرون بالله وأنتم عالمون بحالكم هذه: حال الموت وحال الإحياء ثم الرجوع إليه، إذ لا يمكن حمل الاستفهام هنا على الحقيقة، وهو هنا مستعمل في التعجب والإنكار بقرينة قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾، أي أنّ كفركم مع تلك الحالة شأنه أن يكون منتفيا لا تركز إليه النفس الرشيدة لوجود ما يصرف عنه وهو الأحوال المذكورة بعد فكان

من شأنه أن يُنكر؛ فالإنكار متولد من معنى الاستفهام. 28 ومعنى ذلك أننا هنا بصدد قوتين إنجازيتين:

- قوة إنجازية صريحة ناتجة عن معنى الصيغة الحرفية للتركيب؛ هي الاستفهام: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾.
- وقوة إنجازية مستلزمة هي الإنكار المتولد من معنى الاستفهام على نحو ما بينه الإمام الزركشي والشيخ ابن عاشور في النص السابق.

كما نجد معنى الإنكار في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ (البقرة، 249). فقد ورد الاستفهام في هذه الآية متضمنا معنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون (طالوت) ملكا عليهم، وقد تضمنت الأداة (أنى) معنى (كيف) و(من أين)، أي: كيف يتملك علينا، والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك منه. 29 وحسب الشيخ ابن عاشور فإن الاستفهام في هذه الآية أفاد التعجب. فقد تعجب السائلون من جعل مثله - أي طالوت - ملكا عليهم، وكان رجلا فلاحا من بيت حقير. 30 وعليه فإنه إلى جانب القوة الإنجازية الحرفية في الاستفهام الوارد في هذه الآية، فقد تضمن قوتين إنجازيتين مستلزمتين مقاميا؛ هما الإنكار والتعجب.

- التوبيخ: وقد خرج الاستفهام إلى معنى التوبيخ كما في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة، 44). فالاستفهام في هذه الآية - حسب الشيخ ابن عاشور - وارد في معنى التوبيخ لعدم استقامة حمله على المعنى الحقيقي فاستعمل في التوبيخ مجازا بقرينة المقام. وقد تولد منه معنى آخر هو التعجب من حال الموبخ، وذلك لأن الحال التي وُجِّها عليها حال عجيبة لما فيها من إرادة الخير للغير وإهمال النفس منه، فحقيق على كل سامع أن يعجب منها. 31 والملاحظ من كلام الشيخ ابن عاشور هنا أننا بصدد ثلاث قوى إنجازية يمكن تحليلها تداوليا كالتالي:

- قوة إنجازية حرفية ناتجة عن معنى الصيغة الحرفية للتركيب ← (السؤال).
- قوة إنجازية مستلزمة (أولى) متولدة عن معنى المعنى ← (التوبيخ).
- قوة إنجازية مستلزمة (ثانية) متولدة عن معنى (معنى المعنى) ← (التعجب).

كما خرج الاستفهام إلى معني التوبيخ والتعجب من موقف أهل الكتاب من نبوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ورفضهم أن يكون من غير ملتهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (البقرة، 139) والملاحظ أن الأسلوب القرآني في محاجة أهل الكتاب في هذا المقام يرتفع إلى أعلى مراتب الأدب في الحوار، إنه الأسلوب الدعوي الحكيم الذي علمه الله - سبحانه - رسوله الكريم والذي يقتضي تواضع الداعي، ومسايرة المتلقي بخطابه؛ الخطاب الذي لا يمس مشاعره ولا يحط من مكانته، بل يرفع من شأنه؛ فيسارع إلى الاستجابة لمخاطبه فيقبل عليه ويقبل دعوته.

إنه تجسيداً لمبدأ التأدب التداولي الذي يقضي "بأن يلتزم المتكلم والمخاطب 32 في تعاونهما على تحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام، من ضوابط التهذيب ما لا يقل عما يلتزمان به من ضوابط التبليغ". 33 كما نلمس في الآية الكريمة السابقة - كذلك - تجسيدا لقاعدة أخرى من قواعد مبدأ التأدب؛ هي قاعدة التشكيك التي تقضي بأن يتجنب المتكلم في خطابه أساليب التقرير ويأخذ بأساليب الاستفهام كما لو كان متشككا في مقاصده بحيث يترك للمخاطب مبادرة اتخاذ قراراته بنفسه 34. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة، 61). فقله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، "هو من كلام نبي الله موسى وقيل هو من كلام الله وهو توبيخ شديد لأنه جرده عن المقنعات وعن الزجر، واقتصر على الاستفهام المقصود منه التعجب فالتوبيخ". 35 فقد تعجب من طلبهم ووجههم عليه إذ كيف لعاقل أن يفعل مثلما فعلوا حين طلبوا استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير من الطعام الذي خصهم الله تعالى وأكرمهم به.

- التقرير: خرج الاستفهام إلى معنى التقرير كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة، 33). فالاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ تقريرية بقريته المقام لأن ذلك القول واقع لا محالة، والملائكة يعلمون وقوعه ولا ينكرونه. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لِهْمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ

هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا... ﴿البقرة:246﴾. فقلوه: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا...﴾ استفهام تقريرى وتحذير، وذلك أنه قرّره على إضمار نية عدم القتال اختبارا وسيرا لمقدار عزمهم عليه، والملاحظ أنّ مراعاة حال المخاطب تبدو واضحة في هذا المقام، ولذلك جاء في الاستفهام بالنّفي في معنى (هل لا تقاتلون) ولم يقل: (هل تقاتلون) لأنّ المستفهم عنه (عدم القتال) هو الطرف الزّاحج عند المستفهم، لذلك أراد أن يُقرّره ويُحذّرهم ممّا هم مقبلون عليه. 36

– النفي: من المعاني التي يخرج إليها أسلوب الاستفهام؛ معنى النّفي نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا...﴾ (البقرة،114). فمما ورد في سبب نزول هذه الآية، أنّها في شأن مشركي مكّة حين منعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمسلمين من دخول المسجد الحرام ظلّما، والاستفهام هنا إنكارى لإفادة النّفي بقرينة المقام، بمعنى: لا أحد أظلم من هؤلاء. 37 ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ...﴾ (البقرة،130). فالاستفهام الوارد في هذه الآية الكريمة للإنكار والاستبعاد، وقد أفاد النّفي بقرينة الاستثناء الوارد بعده ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾؛ إذ لا أحد من العقلاء يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم عليه السلام إلا السفهية. 38

ومن المعاني المستلزمة التي خرج إليها الاستفهام في السورة كذلك، نجد:

– الاسترشاد: في قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...﴾ (البقرة،30). إذ الظاهر أنّهم استفهموا مسترشدين.

– التعظيم: في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة،255).

– التنبيه: تنبيه المشركين على ضلالهم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ...﴾ (البقرة،130).

– الترغيب: في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ (البقرة،245).

– الاستبطاء: في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة،214). فقد خرج الاستفهام في هاته الآيات عن معناه الأصلي إلى المعاني المذكورة بقرينة السياق الذي وردت فيه كلّ آية من هذه الآيات.

2- المعاني المستلزمة عن أسلوب الأمر:

الأمر من الأساليب الإنشائية الطلبية، وأما بلغة التداوليين فهو فعل كلامي من فئة التوجيهيات (directives) حسب تصنيف "سورل" لأفعال الكلام يحمل قوة إنجازية تحددها إرادة المتكلم وقصده، وهي إرادة متعلقة بطلب إيقاع الشيء المأمور به. 39

والأمر في القرآن الكريم قد يرد على سبيل الحقيقة لحمل المخاطب على إتيان المأمور به، كما يأتي على سبيل المجاز، فتخرج صيغته عن المعنى الأصلي إلى معان فرعية أخرى كثيرة تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال. وقد خرج أسلوب الأمر عن معناه الأصلي (الوجوب) إلى معان مستلزمة كثيرة في خطاب السورة؛ منها:

- الدعاء: نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. (البقرة، 129، 128، 127). فقد أفادت أفعال الأمر الواردة في هاته الآيات معنى الدعاء والتضرع إلى الله، وقد أفاد تكرير النداء بقوله: (ربنا) إظهار الضراعة إلى الله تعالى وإظهار أن كل دعوة من هاته الدعوات مقصودة بالذات، يرجو منها الداعي تحقق الإجابة 40 .

- التصح والإرشاد: قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾. (البقرة، 45). الخطاب في هاته الآية موجه إلى بني إسرائيل، والأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة هنا هو لإرشادهم إلى ما يُعينهم على التخلُّق بجميع ما حُدِّد لهم من الأوامر والتواهي التي أمرهم الله أن يلتزموا بها. 41

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمُهَادُّ﴾. (البقرة، 45). فالأمر بالتقوى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ وارد في سياق الوعظ والنصح للمخاطب، والمعنى: إذا وعظه واعظ بما يقتضي تذكيره بتقوى الله غضب لذلك. 42

- التعجيز: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. (البقرة، 23). إذ ليس المراد طلب الإتيان

بسورة من مثل القرآن ، وإنما هو لتحديهم وإظهار عجزهم. 43

- الإباحة: من الآيات التي خرج فيها الأمر إلى معنى الإباحة قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ...﴾ (البقرة، 187). فقد خرج الأمر بالأكل والشرب في هذه الآية عن معناه الحرفي؛ الأمر على سبيل

الوجوب والإلزام إلى معنى الإباحة بقرينة السياق، ومناسبة نزول الآية لإبطال ما توهمه بعض المسلمين من أنّ الأكل في ليل الصيام لا يتجاوز وقتين وقت الإفطار ووقت السحور، ولا يكون بينهما. 44 كما خرج الأمر في خطاب السورة عن معناه الأصلي إلى معان أخرى تفهم من

السياق وهي: 45

- التسخير (الاذلال): نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَقْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾. (البقرة، 65). فقد عبّر بصيغة الأمر (كونوا) عن نقلهم من حالة إلى حالة إذلالا لهم، وهو أخص من الإهانة.

- التكوين: وهو أعمّ من التسخير، نحو قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. (البقرة، 117).

- الإرشاد: كوجوب الكتابة في الدين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾. وكالإشهاد في البيع في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾. (البقرة، 282) إذ الأمر بكتابة الدين والإشهاد عن البيع في هاتين الآيتين الكريمة واردة على سبيل الإرشاد والتوجيه إلى ما يصلح أحوال المسلمين ويضمن حقوقهم من الضياع.

3- المعاني المستلزمة عن أسلوب النهي:

كثيرا ما يرتبط النهي بالأمر في الخطاب القرآني وهو لا يختلف عنه في خروج صيغته (لا تفعل) عن المعنى الأصلي إلى معان فرعية مستلزمة تفهم من السياق، ومن المعاني التي خرج إليها النهي في خطاب السورة، نجد:

- الدعاء: ويحدث ذلك إذا صدر النهي من الأدنى مرتبة إلى الأعلى، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ...﴾ (البقرة:286). فقد خرجت صيغ النهي الواردة في هاته الآية عن معانيها الأصلية إلى معانٍ مستلزمة هي التضرع والتوسل والدعاء إلى الله بعدم مؤاخذتهم على الخطأ والنسيان ومعافاتهم من العقوبات والتكاليف الشديدة. 46

- التوبيخ: ومن الآيات التي خرج فيها أسلوب النهي إلى معنى التوبيخ قوله تعالى: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونِ﴾ (البقرة:41). فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ﴾. فعل كلامي إنجازي، نهي، تضمن قوتين إنجازيتين: قوة إنجازية صريحة هي النهي عن الكفر بما أنزل الله، كما تضمن قوة إنجازية مستلزمة هي التوبيخ للمخاطبين من أهل الكتاب، إذ كان يفترض بهم أن يكونوا من المبادرين إلى التصديق بهذا الكتاب (القرآن) لا أن يكونوا من المبادرين إلى الكفر به. وفي هذا يقول الشيخ ابن عاشور: "والمقصود من النهي توبيخهم على تأخرهم في اتباع دعوة الإسلام". 47

- التحذير: يخرج النهي إلى معنى التحذير كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:42). فهذه الآية معطوفة على سابقتها، وقد تصدرت بفعل كلامي توجيهي، قوته الإنجازية الحرفية النهي، وقد تضمن قوة إنجازية مستلزمة هي التحذير؛ تحذير بني إسرائيل من إلباس الحق بالباطل، أي ترويجهم للباطل في صورة الحق، وكتماهم الحق - مع علمهم بذلك - من أجل إضلال الناس. 48

4- المعاني المستلزمة عن أسلوب النداء:

يخرج النداء عن معناه الأصلي (طلب إقبال المدعو على الداعي) إلى معانٍ مستلزمة تُفهم من السياق وقرائن الأحوال، ومن المعاني التي خرج إليها النداء في خطاب السورة:

- الدعاء: وقد خرج النداء إلى معنى الدعاء في مواضع كثيرة من خطاب السورة، منها قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتْنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرَنَا مَتَّاسِكِينَ وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو

عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾. (البقرة، 128، 129، 127).

فقد تكرّر النداء في هاته الآيات ثلاث مرات؛ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ
لَكَ﴾، ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا﴾، وجاء خاليا من الأداة (الياء) ليناسب مقام التضرع
والدعاء إلى الله لأنه كثيرا ما يستخدم نداء الرب في القرآن الكريم دون ذكر الأداة، "ولعلّ في ذلك
تعبيرا عن شعور الداعي بقربه من ربه". 49 لأنّ الدعاء خطاب، ومقام الخطاب مقام مشاهدة
وحضور فلا تناسبه الياء. والمعنى نفسه أفاده النداء الوارد في الآية الأخيرة من السورة في قوله تعالى:
﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. (البقرة، 286).

فقد خرج النداء عن معناه الأصلي المتمثل في طلب إقبال المدعو
على الداعي إلى معنى الدعاء والتضرع إلى الله بطلب المغفرة والعفو والنصرة على القوم الكافرين .
- التنبيه والإرشاد: يخرج النداء إلى معنى التنبيه وإرشاد المنادى إلى الأمر الذي نودي من أجله
لأهميته، ودعوته إلى الإقبال عليه نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. (البقرة، 21) " فالمتقصد بالنداء من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾
الإقبال على موعظة نبد الشرك، وذلك هو غالب اصطلاح القرآن في الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا
النَّاسُ﴾ " 50 وقد كثر النداء في القرآن الكريم بـ (يا أيها) دون غيرها لأنّ فيها أوجها من
التأكيد وأسبابا من المبالغة منها ما في (يا) من التأكيد والتنبيه، وما في (ها) من التنبيه وما في
التدرج من الإبهام في (أي) إلى التوضيح والمقام يناسب المبالغة والتأكيد. 51

- التكريم والتشريف: يخرج النداء لإفادة معنى التكريم والتشريف للمنادى كما في قوله تعالى:
﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ
فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. (البقرة، 35). فالنداء في هذه الآية وارد في مقام التكريم لآدم عليه السلام
وزوجه، وهو نداء تنويه بذكر اسمه في الملا الأعلى لأنّ نداءه يسترعي إسماع أهل الملا الأعلى
ليتطلّعوا إلى ما سيخاطب به. 52 كما خرج النداء إلى معنى التشريف والتكريم في قوله تعالى:
﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ

فَارْهَبُونِ ﴿(البقرة،40). وفي قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة،47). إذ يفهم من النداء في هاتين الآيتين الكريميتين التشريف لبني إسرائيل، خاصة وأنه وارد في مقام التذكير بنعم الله تعالى عليهم و على أسلافهم وكرامات أكرمهم بها، فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب (إسرائيل) وأعقابه مزيد مناسبة لذلك. 53

- النص والإرشاد: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنكُمْ طَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة،54). ويتضح من سياق الآية أنّ الغرض من نداء نبي الله موسى - عليه السلام - لقومه (يا قوم) هو نصحهم وإرشادهم بالتوبة إلى الله وشكره على نعمة إعطائهم الفرصة للتوبة من بعد ما اتخذوا العجل لها يعبدونه من دون الله. 54

وخلاصة القول ومحصول الحديث فإنّ ظاهرة الاستلزام الحواري التداولية تبرز بوضوح في خطاب سورة البقرة وتتمثل في خروج كثير من الأساليب الخبرية والإنشائية عن معانيها الحرفية الأصلية إلى معان مستلزمة يحددها السياق والمقام الذي يجري فيه الخطاب. ومن ذلك:

- خروج الخبر إلى معنى الطلب (الأمر والنهي) كما في قول الله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾. فجُملة ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ جملة خبرية مراد بها الأمر، لأنّ السياق يدلّ على أنّ الله أمر بذلك؛ لا أنّه خبر. وكذا قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾. فنفي الإكراه ب (لا) النافية للجنس في هاتين الآيتين الكريمتين خبر في معنى النهي عن الإكراه في الدين بجميع أشكاله وصوره.

- وقد خرجت الأساليب الإنشائية الطلبية في خطاب السورة عن معانيها الأصلية إلى معان فرعية مستلزمة كثيرة بقرينة السياق والمقام، ومن ذلك خروج الاستفهام إلى معنى النفي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا...﴾. فقد أفاد الاستفهام في هذه الآية معنى النفي؛ أي لا أحد أظلم من هؤلاء الكافرين الذين منعوا النبي (ص) وأصحابه من دخول المسجد الحرام كما بيّنه سبب نزول هذه الآية الكريمة.

- كما خرجت أساليب النداء والأمر والنهي في خطاب السورة عن معانيها الأصلية إلى معانٍ مستلزمة كثيرة منها الدعاء والتضرع إلى الله، نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِيْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. إذ لا يمكن حمل الأساليب الطلبية الواردة في هذه الآية الكريمة على معانيها الحقيقية بأية حال لاستحالة ذلك؛ لكون الخطاب فيها موجّه من العباد إلى الله سبحانه وتعالى وهو متضمّن معنى الدعاء والتضرّع إليه - سبحانه - بطلب عدم المؤاخذه على الخطأ والنسيان، وعدم تحميلهم ما لا يطيقونه من التكليف، وطلب العفو والمغفرة والرحمة والنصرة على القوم الكافرين .

هوامش:

- 1- ينظر: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط2007، 1، ص84
- 2- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص 103.
- 3- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1998، ص 238. وينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 100.
- 4- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، ص 104.
- 5- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص239
- 6- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط1، 2004، ص100.
- 7- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص241.
- 8- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2011 ص120.
- 9- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص249.
- 10- أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، شرح وتعليق محمد كريم راجح، دار اقرأ بيروت، ط4، 1985، ص283.

- 11- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 250.
- 12- العياشي أدراوي، الاستلزام الحوارية في التداول اللساني، ص 25.
- 13- ينظر: الزمخشري، الكشاف، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد عوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1998، ج1، ص 143.
- 14- الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 338.
- 15- ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار التونسية للنشر، د ط، 1984، ج2، ص 19.
- 16- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 282. وإن كان هو يخالف هذا الرأي لأنّ الدعاء عليهم بالزيادة يتناقض مع ما عُهد من الدعاء للمتألمين بالهداية.
- 17- تمام حسان، البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، منشورات عالم الكتب القاهرة، ط1، 1993، ص 60.
- 18- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 134.
- 19- ينظر: تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص 85.
- 20- ينظر: صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1993 ص 234.
- 21- تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص 62.
- 22- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث القاهرة، مصر، د ط، د ت، ج2، ص 320.
- 23- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 233.
- 24- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 26.
- 25- ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ت عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2000، ص 417، 416.
- 26- ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 252.
- 27- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 402.
- 28- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 374. وينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 344.
- 29- الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 472.
- 30- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 490.
- 31- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 475.
- 32- المتكلم والمخاطب - في هذا المقام - هما النبيّ (ص) وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقد استعمل النبيّ (ص) في دعوته إياهم ومحاجتهم أرقى أساليب الأدب والحكمة والموعظة، فجادلهم بالتي هي أحسن كما أمره

- الله تعالى في قوله: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾. (التحلل 125).
- 33- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان ، ص240.
- 34- ينظر: المرجع نفسه، ص241.
- 35- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص523.
- 36- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص485.
- 37- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص679.
- 38- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص724.
- 39- ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص150.
- 40- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص719.
- 41- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص477.
- 42- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص271.
- 43- ينظر: السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، ص581.
- 44- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص181.
- 45- ينظر: السيوطي، الإتيقان، ص581.
- 46- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص141.
- 47- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص460.
- 48- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص470.
- 49- أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، 2005، ص130.
- 50- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص324.
- 51- السيوطي، الإتيقان، ص581. ويُنظر: الرمخشري، الكشاف، ج1، ص211.
- 52- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص428.
- 53- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص449.
- 54- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص504.